رابعة العدوية البتول : الشاعرة المتصوفة

أ.د.سعد بوفَــلاَقــة

كلية الآداب، جامعة عنابة، الجزائر

1- تعريف التصوّف :

التصوّف : هو «العكوف على العبادة والانقطاع عن العمل, والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها, والزهد فيما يُقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه»[1]. إنّه شوق الروح إلى الله, إنّهُ الحبُّ الإلهي المطلق المجرد من المنافع والغايات المادية[2], والحديث عن التصوف يستدعي الحديث عن الزهد, ذلك لأنهما متلازمان ومتداخلان في غالب الأحوال, والفرق بينهما هو أنّ الزهد مرتبة أولى ومرحلة مبدئية تؤهّل للتصوف, فإذا كان الزهدُ دعوة إلى الانصراف عن ترف الحياة ومباهجها, والاكتفاء بما يُقيم الأوَدَ ويستر الجسم, فإنّ التّصوّف شظفٌ وخشونة وجوع وحرمان, وإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ...

وللتصوف ركنان هما : الزهد, والحب الإلهي, وعلى هذا فالتصوف أعمّ من الزهد, فكل تصوفّ زهد, وليس كُلُّ زهد تصوّفًا[3].

---

1 - ابن خلدون : المقدمة, ص : 497, دار الفكر, وأنظر عمر فروج : تاريخ الفكر العربي, ص : 470 وما بعدها. والدكتور صابر عبد الدايم : الأدب الصوفي, ص : 5 دار المعارف بمصر.

2 - الدكتور درويش الجندي : الرمزية في الأدب العربي, ص: 227, نهضة مصر, القاهرة, 1958.

3 - الدكتور عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس, ص : 225, دار النهضة العربية, بيروت.

2- رابعة العدوية رائدة شعر التصوف :

ومن الشواعر اللائي اشتهرن بالشعر الصوفي رابعة العدوية : وهي أمُّ الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية القيسية, مولاة آل عتيك.

وُلدت في أسرة فقيرة مغمورة بعد ثلاث أخوات كانت هي الرابعة, ويبدو أن مولدها كان منتصف القرن الأول للهجرة.. مات والدها وهي لا تزال طفلة, وبعد وفاته لحق البصرة قحط شديد, فخرجت رابعة وأخواتها الثلاث, وهُنّ في عمر الزهور, يبحثن عن الرزق. ويَهِمْنَ على وجوهِهِنّ, فتاهت رابعة في الطريق ولم تستطع أن تهتدي إلى أخواتها, فوقعت في أسر رجل ظالم أذاقها أنواع الذل والهوان, ثم باعها بثمن بخس إلى رجل آخر كانت في بيته أسوأ حالا مما كانت عليه في البيت الأول, ولكنّه أعتقها بعد مدة في حديث طويل[1], فعملت برهة في الغناء والعزف على الناي وما يتصل بِهِمَا... ولكنّها تابت بعد ذلك وحملها ندمّها على ماضيها أنْ تُمْعِنَ في الزهد والتصوف, وتصبح صوفية كبيرة وعابدة مشهورة "وأخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة"[2] حتى أصبح كبار المتصوفة في عصرها يستفتونَهَا في دقائق التصوف كسفيان الثوري[3] والحسن البصري[4] وغيرهما ...

1 - انظر خبرها بالتفصيل في : ابن خلكان : وفيات الأعيان, مج 2, ص: 285 وما بعدها. وابن العماد : شذرات الذهب, ج1, ص: 193. وزينب فواز : الدر المنثور, ص : 202 – 203. وعمر كحالة : أعلام النساء, ج1, ص : 430 وما بعدها. وعبد المنعم قنديل : رابعة العدوية... مكتبة التراث الإسلامي, القاهرة. وعبد الرحمن بدوي : رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي, مكتبة النهضة المصرية, القاهرة, 1962.

2 - ابن خلكان : المصدر نفسه, مج 2, ص : 285.

3 - سفيان الثوري : كان سيد زمانه في علوم الدين والتّقوى, وُلد ونشأ في الكوفة ثم انتقل إلى البصرة فمات فيها سنة 161 هـ (الزركلي : الأعلام, مج 3, ص : 104).

4 - الحسن البصري : تابعي, كان إمام أهل البصرة, وُلِدَ في المدينة وأقام في البصرة حيث توفى سنة 110 هـ. كان عالما وفقيها وناسكا... (الزركلي : نفسه, مج 2, ص : 226).

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاة رابعة العدوية, فقال ابن خلكان: « وكانت وفاتَها في سنة خمس وثلاثين ومائة, كما في شذور العقود لابن الجوزي, وقال غيره : سنة خمس وثمانين ومائة... وقبرها يزار, وهو بظاهر القدس من شرقِيّه على رأس جبل يسمى الطور»[1], والشيء نفسه نجده عند ابن العماد الحنبلي, فقد ذكرها مع وفيات سنة خمس وثلاثين ومائة, ثم قال : « وقيل توفيت سنة خمس وثمانين ومائة»[2], وجعل وفاتَهَا أيضا سنة خمس وثلاثين ومائة كلُ من سليمان سليم البواب[3], وعمر رضا كحالة[4], وعبد البديع صقر[5], وفي رواية أنّها توفيت سنة ثمانين ومائة بعد الهجرة[6], ويبدو أنَّ التاريخ الأقرب إلى الصواب هو سنة خمس وثلاثين ومائة للهجرة, لأنَّ المصادر التي قالت بِهذا التاريخ ذكرته كخبرٍ صحيح بينما شكّكتْ في الروايتين الأخريين باستعمالها الفعل المبني للمجهول "قيل" أو قال بعضهم..., وكذلك ذكرت هذه المصادر أنَّ الكثيرين من معاصريها تقدّموا لخطبتها ومنهم الحسن البصري[7], وهو توفى سنة عشر ومائة للهجرة, فمن غير المعقول أن يكون خطبها أو اتصل بها إذا كانت توفيت سنة 180هـ أو 185هـ عن عمر يناهز الثمانين سنة حسب ما ورد في بعض المصادر, لأن عمرها

1 - ابن خلكان : المصدر السابق, مج 2, ص : 287.
2 - شذرات الذهب, ج 1, ص : 193.
3 - مائة أوائل من النساء, ص : 362.
4 - أعلام النساء, ج1, ص : 432.
5 - شاعرات العرب, ص : 124.
6 - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة, اقتبسه عمر رضا كحالة في كتابه أعلام النساء, ج1, ص : 432 (هامش1). وعبد المنعم قنديل : رابعة العدوية, عذراء البصرة البتول, ص : 239. مكتبة التراث الإسلامي, القاهرة.
7 - بشيريموت : شاعرات العرب, ص : 152.

عند وفاته زهاء عشر سنوات, وإذن فالأقرب إلى الصحة أن تكون توفيت سنة 135 هـ.

وتعد رابعة العدويةُ من أوائل المتصوفة المسلمين, وإليها يَنْسب مؤرخو الصوفية البدءَ بالكلام عن الحب الإلهي والتوسع فيه[1]. ولها أقوال مأثورة وأشعار منظومة, ورابعة معروفة كمتصوفة, وقد كُتِب عنها الكثير في هذا المجال, أمّا كشاعرة فلم يُدرسْ شعرُها دراسة وافية حتى الآن باستثناء بعض الدراسات التي تناولته عرضا عند حديثها عنها كمتصوفة, ولذلك سأقتصر في حديثي على شعرها.

كتبتْ رابعة العدوية شعرا صوفيا, ويبدو أنّها اكتفت بهذا الباب إذ لم يصلنا شعرٌ لها في بقية الأبواب, وأشهر ما أنشدته في هذا الباب قولها :

أحِبُّك حُبّين : حُـــبَّ الهَوَى وحُبًـــا لأنـــك أهـــْلٌ لِـــذَاكَا
فأمّا الذِي هُـــوَ حُبُّ الهَوَى فَشُغْلِي بِذِكــرِكَ عَمَّنْ ســوَاكَـــا
وأمَّا الـــذِي أنْتَ أهـــْلٌ لَهُ فَكَشْفُكَ لِي الحُجْبَ حَتَّى أرَاكَـــا
فَلاَ الحَمْدَ فِي ذَا وَلاَ ذَاكَ لِي ولَكِنْ لَكَ الحَمْدُ فِي ذَا وذَاكَـــا[2]

تصرّح الشاعرة بحبّها للّه جلّ شأنه, فتقول : إنّني أحبُّك يا إلهي حبّين مجتمعين : أوّلهما حب العشق والهوى لأنّني فتنتُ بحسنك, وثانيهما فهو حب التعظيم والإجلال لأنّك جدير بِهَذَا الحُب, ولا أجد من يستحقُّه

1 - عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي, ج2, ص : 129.
2 - زينب فواز : الدر المنثور, ص : 203. وبشيريموت : شاعرات العرب, ص : 153. وخديجة القماح ومحمد علي أحمد : رابعة العدوية, ص : 84. نشر مكتبة رجب القاهرة, ط2, 1983. وانظر السراج : مصارع العشاق مج 1, ص 274 –275.

سواك. وكيف لا ؟ وقد كشفت لي الحجب فرأيتك بعين الخيال على حقيقتك, ولست أنا صاحبة الفضل في هذا الحب فهو من المحبوب نفسه لأنه مستحق له لكماله, فله الحمد أوّلا وأخيراً.

وقالت تتغزّل في الذات الإلهية كما تتغزّل عاشقة في بشر, فحبيبُها وإنْ غاب عن بصرها فهو شاخص قبالة فؤادها لا يغيب عنه :

حَبِيب لَيْــسَ يَــعْــدِلُــهُ حَــبِيبٌ   ومَا لِسوَاهُ فِي قَلْبِي نَصيبٌ
حَبِيبٌ غَاب َعَنْ بَصَرِي وشَخْصِي   ولكنْ عَنْ فُؤَادِي ما يَغِيبُ[1]

وقالت تصفُ انصرافها عن الناس بروجها ونفسِها وحِسّها إلى اللّه تعالى ولو كانت بجسمها معهم :

إنّي جَعَلتُك في الفُؤَادِ مُحَدّثي   وأبَحْتُ جِسْمِي مَنْ أرَادَ جُلُوسي
فالجِسْمُ منّي لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسٌ   وحَبِيب قَلْبي فِي الفُــؤَاد أنِيسِي[2]

وكانت رابعة زاهدة في الدنيا تنام على حصيرة بالية, وتتوسد قطعة من الحجر, وتشرب من إناء مكسور. وتقضي ليلها تصلي لله وتناجيه قائلة :

وزَادِي قَلِيل ما أراهُ مُبَلّغِي   ألِلزّاد أبْكِي أمْ لِطُولِ مَسَافَتِي
أتَحْرِقُني بالنّارِ يا غَاية المُنى   فأين رَجَائِي فيكَ أيْنَ مَخَافَتِي

1 - بشيريموت : شاعرات العرب... ص:152. وعبد البديع صقر: شاعرات العرب, ص:125. وروحية القليني: شاعرات عربيات, ص: 68, الدار القومية للطباعة والنشر, مصر. د.ت.

2 - بشيريموت : المرجع نفسه ص : 152. وخديجة القماح ومحمد علي أحمد : رابعة العدوية, ص : 80. وابن خلكان : وفيات الأعيان, مج 2, ص : 286 – 287.

ويبدو أنّها لم تلبث أنْ تغيّرت في حُبِّها للذات الإلهية في غير رهبة أو رغبة, فهي لا تعبده خوفا من النار أو طمعا في الجنة, وإنما تعبدُه استغْراقا في الحُبِّ لذاته, ذكر العطار أنّ رابعة كانت تقول : « إلهي إنْ كنتُ عبدتُكَ خوف النار فاحرقني بالنّار, أو طمعا في الجنة فحرّمها علي, وإنْ كنتُ لا أعبُدكَ إلاّ من أجلك, فلا تحرمني من مشاهدة وجهك»[1].

ويذكر أنَها عزفت عن الزواج لأنّها لا تريد أنّ يشغلها شاغل عن حبّ الله, وقد رفضت من نقدم إليها من الخطاب, وكان منهم أمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمي, والصوفي عبد الواحد بن زيد, والحسن البصري, ثم أنشدت تقول :

رَاحتِي يَا إِخْوتِي فِي خَلْوَتِي ... وحَبِيبِي دَائـمًا فِي حَـضْرَتِي
لَمْ أجِد لِي عَنْ هَواهُ عـوضًا ... وهَـواهُ فِي البَـرايَا مِـحْنَتِي
حَيْثُمَا كُنْتُ أشـاهِدُ حُسْنــه ... فَـهْوَ مِحْـرَابِي إلــيه قبلتِي
إنْ أمُتْ وجْـدًا ومَا ثَمَّ رِضَا ... وَاعنَائِي فِي الـوَرَى واشِقْوتِي
يا طَبِيبَ القَلْبِ يا كـُلَّ المُنى ... جُدْ بوصْلٍ مِنْكَ يشفي مُهْجَتِي
يا سُرُورِي يا حَيَاتِي دَائِـمًا ... نشْـأتِي مِنْـكَ وأيْضًا نَشْوَتِي
قدْ هجَرتُ الخَلقَ جَمْعًا أرْتجي ... مِنكَ وصْلا فهْو أقْصى مُنْيَتِي

وهكذا لقد استولى حب الإله على نفس رابعة, وتربع في أحشائها وسكن مهجتها فأصبحت تطلب وصاله ورضاه كما تتغزّل عاشقة في بشر مثلها, وهي تكرر نفسها دائما في معظم قصائدها, فمعانيها لا تخرج عن

1 - بشيريموت : شاعرات العرب, ص : 152. وأنظر عن خطاب رابعة وأسباب رفضها للزواج : عبد المنعم قنديل : رابعة العدوية, ص : 49 وما بعدها.

حُبّها لله وفنائها فيه, وزهدها في الدنيا لانشغالها بالخالق, فهو راحتها في خلوتها وهو قبلتها[1]...

يا سُرورِي ومُنْيَتِي وعِمَادي وأنِيسي وعُدّتي ومُرادي
أنتَ رُوحُ الفُؤادِ أنتَ رَجَائِي أنتَ لي مُؤنسٌ وشَوْقُكَ زادي
أنتَ لولاكَ يا حَيَاتِي وأنسي ما تشتَّتُ في فسيحِ البلادِ
كمْ بَدتْ مِنَّةٌ وكمْ لكَ عِنْدي وَاعَنَائِي فِي الورَى واشِقْوَنِي
حُبُّكَ الآن بُغْيَتِي ونَعِيمِي وجلاءٌ لعيْنِ قَلْبِي الصّادي
لَيْسَ لي عَنْكَ يا حَبِيبُ براحُ أنتَ مِنّي مَكْمَنٌ فِي الفُؤَادِ
إنْ تكُنْ راضِيًا عَليَّ فإنّي يا مُنى القلْبِ قد بَدَا إسْعَادي[2]

وكثيرا ما كانت تناجيه راجية مرضاه, ولا يهمها بعد ذلك إنْ غضب الأنام طُرًا, تقول :

ولَيْتَكَ تحْلُو والحياةُ مريرةٌ وليتَكَ ترْضى والأنامُ غِضابُ
وليْتَ الذي بيْني وبيْنكَ عامرٌ وبيني وبيْنَ العالمين خرابُ
إذا صحَّ مِنْكَ الودُّ فالكلُّ هيّنٌ وكلُّ الذي فوْقَ التُّرابِ تُرابُ[3]

---

1 - روحية القليني : شاعرات عربيات, ص : 68 – 69.
2 - عبد البديع صقر : شاعرات العرب, ص : 124 – 125 والشيخ الخريفيش, الروض الفائق, اقتبسه عبد الرحمن بدوي في كتابه : شهيدة العشق الإلهي, ص 23.
3 - روحية القليني : شاعرات عربيات, ص : 69.

ومّما نُسِبَ إليها أيضا قولها :

كأسي وخَمري والنّديمُ ثلاثةٌ وأنا المشوقةُ في المَحبَّةِ رابعةْ
كأسُ المسرةِ والنعيمِ يُديرُها ساقي المدَامُ على المَدى مُتتابعةْ
فإذا نظرْتُ فلا أرى إلاَّ لهُ وإذا حضرْتُ فلا أرى إلا معهْ
يا عاذلي إنّي أحِبُّ جَمالَهُ باللهِ ما أذُني لعذْلِكَ سامِعَهْ
كمْ بتُّ منْ خرقي وفرطِ تَعلّقي أجْري عُيُونًا مِنْ عُيُوني الدامِعَهْ
لا عَبْرَتِي تَرْقَى ولا وَصْلِي لَهُ يَبْقَى ولا عيْني القريحَة هاجِعهْ[1]

ويبدو أن المقطوعتين الأخيرتين من أجمل ما قالت رابعة العدوية من ناحية الأسلوب والصياغة, فأسلوبُها سلس, وصياغتها اللفظية واضحة مألوفة قريبة المتناول, لا تعقيد فيها ولا تكلف.

وذكر صاحب مصارع العشاق أن رابعة العدوية كانت قد انقطعت عن التّهَجُّد وقيام اللّيل إثْر علّة, فرأت في منامها حُلمًا مفاده أنَهَا بانقطاعها عن قيام الليل قد أغضبت الرحمن, وكادت تفقد بِهذا ما حصّلتهُ من قبل بتهجدها, ولهذا أقبلت عليها الحورية التي رافقتها في تجوالها في الجنة, إبّان هذه الرؤيا, وقد رأتْ انصراف الوصفاء عنها, وقالت تُؤنّبُها بهذين البيتين :

صلاتُكِ نورٌ والعبادُ رُقُودُ ونوْمُكِ ضِدٌّ للصلاةِ عنيدُ
وعمْرُكِ غنْمٌ إنْ عقَلْتِ ومُهْلَةٌ يَسيرُ ويَفْنى دائِمًا ويبيدُ

ثمَّ غابت الحورية من بين عينيها, واستيقظت رابعة حين تبدّى الفجر مدعورة, وعادت إلى ما كانت عليه من قيام ليل وتهجّد[1].

1 - روحية القليني : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

وروى السّراجُ أيضا في مكان آخر من مصارع العشاق, عن ذي النُّون الصوفي المشهور, أنّه قال : « بينما أنا أسير على ساحل البحر, إذ بصرْتُ بــجارية عليها أطمار شعر, وإذا هي ناحلةٌ ذابلةٌ, فدنَوْتُ منها لأسمع ما تقول, فرأيتُها متّصلة الأحزان بالأشجان, وعصفتِ الرياحُ واضطرابتِ الأمواجُ... فصرختْ, ثمَّ سقطتْ إلى الأرض, فلمّا أفاقتْ نحبَتْ, ثمّ قالت : سيدي إليكِ تقرّبَ المتقرّبون في الخَلواتِ, ولعَظَمَتِك سبّحت الحيتانُ في البحارِ الزاخرات, ولجلال قُدسِكَ تصافقتِ الأمْواجُ المُتلاطِماتُ. أنت الذي سجد لكَ سواد الليل, وبياضُ النّهار, والفلَكُ الدّوّارُ, والبحرُ الزّخّارُ, والقمَرُ النّوارُ والنّجْمُ الزّهّارُ, وكلّ شيء عِنْدكَ بِمقْدارٍ, لأنّكَ اللهُ العليُّ القهّارُ :

يا مؤْنسَ الأبْــرار في خَلْواهم   يا خيْرَ منْ حطّت بهِ النّــزّالُ
من ذَاقَ حُبّكَ لا يزالُ مُتيّمًا   قَــرِحَ الفُــؤاد يعُودُهُ بَلبــالُ
من ذَاقَ حُبّكَ لا يُرى مُتبسّمًا   في طُولِ حُزْنٍ لِلْحشا يَغْتالُ

فقُلْتُ لها : مَنْ تُريدين ؟ فقالتْ : إليك عنّي, ثم رفعتْ طرفها نحو السماء فقالتْ : أحبُّكَ حُبّين (الأبيات السالفة الذكر). ثم شهقتْ, فإذا هي قد فارقتْ الحياة....» [2]

3- خصائص شعرها :

وفي ختام حديثنا عن شعر رابعة العدوية يجدر بنا أن نسجل الملاحظات التالية من خلال ما وصلنا من شعرها.

1 - انظر الخبر والبيتين في السراج : مصارع العشاق, مج 1, ص : 207 – 208.
2 - السراج : المصدر السابق, مج 1, ص : 274 – 275.

إنّ أوّل ما نسجله هو أنَّ شعرها كان قليلا بالقياس مع شهرتها التي شرّقت وغرّبتْ, إذْ لم يتجاوز عدد القصائد التي وصلتنا من شعرها العشر... ولعلّ شهرتها كانت بسبب كونها رائدة الحب الإلهي والعشق الرباني في الإسلام.

اقتصر شعرها على غرض واحد من الأغراض الشعرية وهو الشعر الصوفي, فشعرها لا يخرج عن حبها لله وفنائها فيه وزهدها في الدنيا لانشغالها بحب الخالق وهي سبّاقة في هذا الغرض.

وكان شعرها من حيث قيمته الفنية في مجمله قليل التكلّف بعيدا عن الخيال والتفلسف, خاليا من العبارات المنمقة, ضعيف المبنى, عميق الدّلالة.

يتميز شعرها بالشعور الديني الصادق والعاطفة الجياشة, ولكن معانيها متكررة في أحايين كثيرة, ولا تخرج معانيها في الشعر عن معانيها في النثر, حبها لله وفناؤها فيه...

كانت هذه هي رابعة العدوية الشاعرة التائبة الزاهدة العابدة الناسكة المتصوفة التي أقرَّ لها كثيرون من الدارسين بمركز الريادة في الحب الإلهي, وبالأستاذية لكُلِّ الذين جاءوا من بعدها واستهدوا بِهَديهَا كابن الفارض[1] والشريف الرضي[2] وريحانة وميمونة وغيرهم.

1 - هو عمر بن أبي الحسن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل, المصري المولد والدار والوفاة, المعروف بابن الفارض, ولد سنة 576 هـ وتوفى سنة 632 هـ وهو من أشهر المتصوفين ويلقب بسلطان العاشقين. أنظر (الزركلي : الأعلام, مج 5, ص : 55. وابن خلكان : وفيات الأعيان, مج 3, ص : 454 وما بعدها. والحنبلي : شذرات الذهب, ج5, ص : 149 ...).

2 - محمد بن الحسين أبو الحسن المعروف بالشريف الرضي, مولده ووفاته في بغداد (359 – 406) هـ وهو أشعر الطالبين... (انظر : الزركلي: المصدر نفسه, مج 6, ص : 99. وابن خلكان : المصدر نفسه, مج4, ص : 414 وما بعدها).